الواقع الاجتماعي في أدب طه حسين الروائي

د. بشير عبد زيد عطية

الكلية التربوية المفتوحة / مركز القادسية

المقدمة في نهضة الرواية العربية:

الفن الروائي أحد الفنون النثرية الحديثة ، لما له من قدرة فائقة على التغلغل في الحياة اليومية ، وتركيزه على الفردية الإنسانية بعد أن كان همه الموضوع ، وتكمن أهمية هذا الفن في الكشف عن الشخصية الإنسانية ودورانها في المحيط السياسي والاجتماعي والنفسي والتاريخي . إذ أنه يصيب منها البنى المتداخلة للإنسان ويكشف عن هواجسه تجاه الكون والمحيط والمجتمع . والفن الروائي العربي يعد أنموذجاً فنياً رائعاً ، فهو على حد قول رازكز أحمد (ديوان العرب الجديد ، سواء من حيث وظيفتها أم من حيث طليعتها في رصد أحوال العرب ، أو من حيث تربعها في قمة هرم أشكال الخلق الأدبي)^١. غير أنها لا يمكن مقارنتها بالنتاج الروائي العالمي ، بسبب من طبيعة الثقافة المعرفية الروائية وعمقها موازنة بالرواية العربية . فالروائي الغربي له تجارب في كتابة الرواية تمتد إلى ثلاثة قرون أو أكثر ، مما يعطيه بعداً يؤسس عليه فعله الروائي المعاصر ، مثلما يتكئ الشعر العربي المعاصر على وعي معرفي شعري إبداعي يمتد إلى ألف سنة ونصف أو يزيد . والرواية العربية نسبة إلى الشعر أقل حظوة في وعي الجمهور وتلقيه ، لما للشعر من أثر بعيد الغور في وجدان العربي . وقد تأسس الفن الروائي العربي على خلفيتين مختلفتين الأولى : تمثلت في الفن الروائي الغربي وأثره بالرواية العربية عن طريق البعثات التعليمية التي قام بها المصريون إلى أوروبا. والخلفية الثانية : تنامي الوعي العربي القومي بعد الحرب العالمية الأولى ونشوب الثورات التحريرية في أرجاء الوطن العربي كله^٢. وبعد دارسوا الرواية العربية الحديثة إن النشأة الأولى لها كانت على يد المصريين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وقد ذهب نقاد الكتابات الروائية في التأسيس لها والمراحل التي مرت بها مذاهب شتى . فقد قسم الدكتور عبد المحسن طه بدر المراحل التي مرت بها الرواية العربية المصرية في كتاب " تطور الرواية العربية في مصر " إلى : مرحلة الرواية التعليمية التي تهدف إلى التعليم من دون متعة السرد ، وضرب لها مثلاً " مغامرات تليماج " التي نقلها عن الألمانية الدكتور " رفاعة الطهطاوي " . ثم الرواية التاريخية الترفيهية ، وضرب لها مثلاً " غادة

كربلاء " لجرجي زيدان ، ثم الرواية الفنية التي جاءت تأسيساً على حركات النضال العربي ومن كتابها " طه حسين ، توفيق الحكيم ، محمد حسنين هيكل ، محمود تيمور "٣. ومن الكتاب من قسم المراحل التي مرت بها الرواية العربية اعتماداً على مذاهب الأدب الغربي ، وقسمها إلى : المرحلة الرومانسية التي امتدت إلى الثلاثينات من القرن العشرين ، وتصنف بأنها روايات تاريخية وسير ذاتية ، وقد توافقت مع النهضة العربية ، مثل روايات " طه حسين ، وجرجي زيدان ، ومحمد حسنين هيكل وغيرهم " . ثم المرحلة الواقعية من منتصف الثلاثينات وامتداد إلى الستينيات من القرن العشرين ممثلة بروايات نجيب محفوظ . ثم الرواية الجديدة التي بدأت منذ منتصف الستينيات إلى الوقت الحاضر٤. ومن الكتاب من قسم مراحل نشوء الرواية العربية الحديثة على جانب من الموضوعية تارة ، وعلى جانب من أحداث التاريخ أخرى ، فكان قد ابتدأ بالرواية التاريخية ثم الأسطورية ، ثم الوجدانية ثم الرواية الاجتماعية ثم يردفها بالرواية النضالية ، وتستقر عند الرواية التحليلية٥. ولو نظرنا إلى هذه التقسيمات لوجدناها تلتقي في جوانب عدة أسست للرواية العربية الحديثة في مصر . غير أن الفضل في تطور الرواية العربية الحديثة في مصر يعود كما يرى الدكتور " عبد المحسن طه بدر " إلى الوافدين الشوام وفضلهم في تقديم هذا الفن ، مشيراً إلى الأسباب التي جعلتهم أسبق من المصريين في هذا المجال ، وقد أوعزها إلى الحروب التي دارت بين الدروز من جهة ، والمسحيين من جهة ثانية ، فضلاً عن اشتغالهم بالصحافة قبل غيرهم من العرب ، ومن ثم حركات الترجمة التي ترجمت التراث الغربي بما فيه الروايات إلى الأدب العربي٦.

إن المرحلة الأولى للرواية المصرية – كما تقدم – تمثل النواة الأولى الحقيقية للرواية العربية المعاصرة . وإذا كانت اليوم تمثل جنساً أدبياً منفرداً في خصوصيته ، وكاتبها فنان مبدع، فقد كانت بالأمس تمثل حراجة في نشرها في الأقل عند كاتب من كتاب الرواية المصريين ، فقد امتنع " محمد حسنين هيكل " من وضع اسمه على رواية " زينب " . حتى أنه استبدل عنوانها بعنوان " مناظر من الريف المصري " خوفاً مما تجره عليه من عواقب تؤثر على مستقبله المهني في المحاماة٧. غير أن هذا المسار تغير في حقبة لاحقة ليعلن عن تربع الرواية المصرية قمة عرش الرواية العربية ممثلة بروايات نجيب محفوظ.

تجربة طه حسين الروائية:

يمثل طه حسين علامة فارقة في الأدب العربي بعامه ، والأدب المصري بخاصة ، ويمكن عده مدرسة قائمة برأسها لما عرف عنه من موسوعة أدبية وتاريخية فذة . فهو كما وصفه الراجعي (مدين بنبوغه لتوقد ذهنه وحسه وقوة ذاكرته ، ولياقة حديثه ، ومزايا عاهته)٨. وطه حسين من المثقفين

الذين مزجوا بين الأحلام الوطنية وأحلامهم الذاتية مصرحين بدور المثقف اللازم في إعادة بناء مجتمعه^٩. وقد عدّه الدكتور شفيح السيد من الجيل الثاني من كتاب الرواية بعد محاولات المويحي في " حديث عيسى بن هشام " ، وإبراهيم ناجي في " ليالي سطيح " ، ووضعه ضمن المرحلة الأسطورية – كما تقدم – متخذاً رواية " أحلام شهرزاد" أنموذجاً^{١٠}. وقد طرق طه حسين غير باب من أبواب الأدب ، فكانت الرواية أوصدها باباً ، فهي بالرغم مما يبدو عليها من سهولة قريبة ، إلا أنها عصية على التأليف لما تحتاج من خبرة كتابية ، ومملكة تأليف عاليتين . ومما لا شك فيه إن طه حسين يمتلك تلك الأداة التي تجعله روائياً ، فقد طرق باب الرواية بعقلية الأديب المتمرس ، والتاريخي الحصيف ، فكان من أشهر رواياته" دعاء الكروان ، الحب الضائع ، أحلام شهرزاد ، شجرة البؤس ، وغيرها" مثلت محاولات ناجحة في ميدانها ، وقد قطع الدكتور عبد المحسن طه بدر القول في كتاب الأيام بجعله ضمن كتب السيرة الذاتية .

إن طه حسين واحد من الرواد الذين أنصفهم الدكتور شكري عياد بقوله (ما فعله أولئك الرواد هو المقدمة الضرورية لقيام أدب قومي يستطيع أن يقف على قدميه بين آداب العالم ، فقد أوجد جمهوراً من القراء متقارب الميول والثقافات يمكنه أن يتذوق ألواناً من الأدب كان ينكرها سابقه)^{١١}. وإذا كنا بصدد الحديث عن طه حسين بوصفه قد عني بالجانب الاجتماعي في رواياته فلا مناص من الاستضاءة برأيه أولاً في هذا الجانب ، فقد صرح في كتابه خصام ونقد بما نصه (وقد وصلت إلي أصداء حملة رقيقة أو عنيفة نهض بها بعض الكتاب ليثبتوا إني لا أحسن كتابة القصة ، بل ليثبتوا إني لا أحسن الكتابة لا في القصة ولا في غيرها وهذا كله حسن لا شك فيه . فما زعمت في يوم من الأيام إني قاص أجيد فن القصص أو أقارب جادته)^{١٢}. ما قاله ليعني شيئاً أمام ما قاله هؤلاء الكتاب ، فرده عليهم من قبيل الترفع والسخرية ، ولكن لماذا يلح غير واحدٍ من الكتاب على كونه لا يندرج في ضمن كتاب القصة أو الرواية ، والباحث لا يشايح أحداً من هؤلاء الكتاب بقدر ما يتساءل مع الدكتور طه حسين عن الأسباب التي جعلتهم يلحون بالقول على كونه لا يندرج في ضمن كتاب الرواية . فضلاً عن ذلك فإن بعض الكتاب المصريين المختصين بالنقد الروائي ، لا يشيرون من قريب ولا بعيد لطه حسين بوصفه روائياً ، على الرغم من أنهم كتاب لهم باعهم الطويل في الكتابات النقدية الروائية أمثال " سيد حامد النساج في كتابه تطور فن القصة القصيرة في مصر ، وكتاب في الرواية المصرية فؤاد درارة " الأمر الذي يثير تساؤلاً حول إذا ما كان الدكتور طه حسين روائياً محترفاً ، أو روائياً هاوياً . علينا قبل ذلك أن نسجل لطه حسين بأنه كان ناقداً للرواية العربية الحديثة ، فقد ذكر في كتابه "

من أدبنا المعاصر " جملة من النقودات لكتاب الرواية العربية من جيله أمثال نجيب محفوظ ، وهيكمل ، وهذا دليل على ذوقه النقدي الروائي^{١٣} .

إن طه حسين – بوصفه روائياً – عاصر هيكمل ، والمازني والحكيم والعقاد ، وظاهر لاشين ومحمود تيمور ، وهذا الجيل من الكتاب تباينت أعمالهم الروائية بين محاك للرواية الغربية التي ذاع صيتها في آفاق الثقافة المصرية ، وبين منهمك في الشارع المصري يحكي همومه الاجتماعية والثقافية ، والاقتصادية . وإذا أردنا أن ننصف طه حسين في مجال كتابة الرواية علينا أن نقارن أعماله الروائية بأعمال معاصريه ، فهو لم يكن أعلى منهم كعباً ، ولا أقل منهم شهرة ، إنما كانوا في أعمالهم الروائية على خط شروع واحد ، إذا ما استثنينا منهم هيكمل بوصف رواية " زينب " تعد المحاولة الأولى الناضجة في الرواية العربية الحديثة كما يزعم أغلب نقاد الرواية العربية . لذا فإن (إنتاجه في ميدان الرواية لا يرقى إلى مستوى إنتاج عدد كبير من كتاب القصة المصريين ، ولكنه من ناحية أخرى يتفوق على إنتاج عدد كبير منهم)^{١٤} . وقد دخل طه حسين ميدان الرواية مع أقرانه من الكتاب الذين سبق ذكرهم ، وخرج منه وقد لمعت فيه أسماء نجيب محفوظ وعادل كامل ، ويحي حقي وفريد أبو حديد، لهذا فخروجه من الميدان لم يترك فراغاً كبيراً^{١٥} . يمكن القول على خلفية ما تقدم إن طه حسين فرضت عليه ثقافته المتنوعة وإطلاعه الواسع أن يكون اسماً لا تتجاوز الأرقام في ميدان الرواية العربية الحديثة ، ويكفيه فخراً أنه مثل جيلاً وحقبة كانت فيه الرواية العربية تحبو ، فأرسي مع زملائه الأسس الأولى للرواية العربية بصرف النظر عما إذا كانت كتاباته ترتقي إلى مصاف الأعمال العالمية أو لا ترتقي . المهم إنه سجل سبقاً ووضع قدماً كان من الصعب على غيره أن يضعها في مجال خطير كالرواية . غير أن ما يؤاخذ عليه هو طبيعة طرحه الروائي ، هذا ما تتضح إشكالاته في دراسة الروايات التي كتبها في الصفحات التالية .

في الفن الروائي:

يجد نقاد الأدب في ألوانه وجهين ، الأول : طبيعته الفنية ، والثاني : مجموعة القواعد والأصول التي توطر لوناً بعينه، والفن الروائي واحد من فنون الأدب التي وضعت لها القواعد والأصول التي تحكم جودته . لذلك فإن أية خروج أو تقصير في جانب من تلك الجوانب يعد عيباً على عمل الروائي وفنه ؛ ولأن ما يحكم الرواية من أصول وقواعد يعد علماً واسعاً وكبيراً ، فلا نعدم أن نجد كتاب الرواية العالمية ربما قصرُوا في جانب من جوانبها ؛ لأن تلك الأصول لا تحكمها قواعد محددة ودقيقة ، إنما هي قواعد تتجاوز الحدود إلى وجهات النظر البسيطة التي تختلف باختلاف النقاد وبيئاتهم وثقافتهم وميولهم الاجتماعية والسياسية والثقافية . تأسيساً على هذا فإن ما من عمل روائي إلا

وداخلته الثغرات النقدية التي تقوض من جودته وقوة بنائه الدرامي . غير أن المهم في الرواية إنها أصبحت طريقة للكتابة عن الحياة اليومية ، وعن الناس البسطاء^{١٦} . وهذا الأساس يعد المرتكز الذي تقوم عليه الأعمال الروائية الخالدة ، أمثال رواية " الأم " مكسيم غوركي ، ورواية الحرب والسلام لتولستوي .

إن نسج المادة الروائية يرتكز على ركيزتين : توافر العناصر الفنية ، " حدث شخص ، زمان مكان ، خطاب " . و " أسلوب السرد كيفية بناء الرواية"^{١٧} . هاتان الركيزتان هما العماد للرواية الناجحة ، وفي هاتين الركيزتين يعمل الروائي يده في المشهد ، ويجرده من أشياء كثيرة ، أشياء من الحياة بالية منذ البداية ، فهو يختار ما يريد ثم يشرع في عمله وخياله فيكشف عن أهمية الركيزتين متحرراً من أي التزام ، فهو يعيد خلق الأشياء بأوضاع جديدة لم تكن معروفة في الحياة لها قانونها الخاص وتعتبر عن نفسها من دون عائق^{١٨} . وليس للكاتب المبدع في هذا الأمر سوى " التكنيك " بوصفه الوسيلة الوحيدة والناجعة التي يكشف ويطور موضوعه من خلالها حتى ينقل معنى تجربته ويطبقها^{١٩} . غير أن هذه الأشياء وإن بدت لازمة من لوازم الفن الروائي ، إلا أنها غير كافية إلا في حالة واحدة أن يتنفس الروائي والرواية الحرية ، وهذا لا يتم إلا في حالة واحدة عندما يمتلك لها جذوراً في المجتمع^{٢٠} . لذلك يجد " كولن ولسن " في كتابه " فن الرواية " (أن الحرية أساس الرواية الناجحة)^{٢١} . ويبدو للباحث بعد أن اطلع على كتابات طه حسين الروائية ، وجده لم يقصر في الجوانب الرئيسية لكتابة الرواية ، فضلاً عن كونه كتب بفضاء من الحرية اللازمة . ويبدو أن الحرية هنا لا تعني قمع فعل الكتابة عند المبدع بقدر ما تعني الحرية التي يتحرك من خلالها الفكر الروائي في ثيمات الحدث خالفاً ومبدعاً لأبعادها الواقعية الفنية . لقد مكنت ثقافة طه حسين شخصه الروائية من التحرك عبر ميادين الفضاء الروائي بحرية الواقع التاريخي تارة ، وحرية الواقع المعاصر تارة أخرى ، الأمر الذي دعا حاسديه أن يعولوا على مسألة محاكاة الواقع الصرف الذي ربما أنتج عملاً بسيطاً بحكم قرابه من الواقع ، ونقله المباشر إلى دراما الفن الروائي الذي يعول على خلق الواقع خلقاً فنياً . ولكن ما أسهل أن تمسك للمبدع على عيب لا يخل بعمله . وحرى بنا أن نضم صوتنا إلى صوت الدكتور " فيصل دراج " الذي يقول : (إن النص الروائي كتابة نوعية لجملة النصوص الاجتماعية التي تتضمن ما يقول به المؤرخون وعلماء الاجتماع وما يقول به الإنسان العادي)^{٢٢} .

تحرك طه حسين في مجمل أعماله الروائية في ساحة الواقع المصري الاجتماعي المتلون ، بين الغني والفقير ، بين الثقافة والجهل ، فكانت رواياته الوجه المقروء للواقع على الورق ، والمؤدي بالنتيجة إلى نقد الواقع المصري البائس قبالة واقع الحياة المعاصر والمتطور التي وجده في العالم

المتمدن بسبب سفره إلى بلدان العالم المتحضر ، فكان همه من كل ما كتب أن يجد الوسيلة الناجعة للخلاص من هذا البؤس العربي الذي ما زال يجد في مشايخ الدين ، وأصحاب الطريقة أسياً تقدم لهم فروض الطاعة ، في حين أنهم لا يفقهون شيئاً ، بل ربما لا يفكون خطأً . وقف طه حسين أمام المرأة العربية المصرية باحثاً أسباب رقيها وإعادة الهبة لها ، داعياً المجتمع إلى احترامها بقدر ما تقدمه إلى المجتمع من تفران وإخلاص وحمل للمسؤولية الإنسانية التي تقوم بها . أمام هذا كله وقف طه حسين محاوراً الواقع المصري بلغة يفهمها الإنسان البسيط ويدرك معانيها السهلة الميسرة رغبة منه بتحرير هذا الواقع الميت نحو الحياة التي يعيشها غيرهم في بلدان العالم المتمدن .

كانت روايات طه حسين درساً في القيم الاجتماعية والإنسانية ، فلم تكن حاملة يعمد فيها إلى إثبات ذاته الروائية ، أو مقدرته الثقافية ، إنما هي مزيج من اللغة الميسرة التي ما عهدت لديه في كتاباته الأدبية الأخرى ، مع شيء من الحبكة الدرامية المتوقعة التي تجد حلها في تناول يد القارئ ، فهو لا يذهب بقارئه إلى فضاءات الرؤى المتشابكة بغية وقوع القارئ في مجاهيل الفلسفة المضنية ، ولا يعمد إلى أسلوب التزييق اللفظي الذي يحيد الأحداث ويضائل من قوتها ، وهو فوق هذا وذاك تراه حاضراً مع شخوصه يحلم بحلمهم ويتنفس أفكارهم غير آبه لما يقول عنه النقاد الذين يجدون في وجود الراوي عيباً يحط من قيمة عمله . ما يسعنا إذن إلا القول : إن طه حسين كتب الرواية لا ليكون روائياً ، أو يبغى من ورائها شهرة ، فقد يكفيه ما هو فيه من روعة أداء وحسن بيان ، غير أنه كتب الرواية لغرض تصحيح أشياء آمن بها ، وأراد أن يعمم ما آمن به على قراءه ، وقد وجد أن ما يقوله هو ما يشعر به القارئ العربي بعمومة ، والقارئ المصري بخاصة . فهو لم يكن طموحه العالمية من وراء ما كتب بقدر ما كان هاجس المجتمع يلح عليه ، وهاجس المعلم الذي أخذ عهداً على نفسه أن يعلم من دون أن يرى من يجلس أمامه للتعلم .

أولاً: نقد الأعراف والتقاليد القديم " دعاء الكروان " :

تمثل العمل الروائي الأول إذ انتهى من كتابتها عام ١٩٣٤ ، وكان قد سبقها بكتابات قصصية كثيرة . وسماها بهذا الاسم تيمناً بديوان عباس محمود العقاد ، هذا ما نص عليه إهداء الروائي في مقدمته الرواية . ويبدو أن الكروان يمثل رمزاً للنديم والسمير ، وهو عند طه حسين فاعل يستجيب وينادم ويسمع ويسامر ، فقد مثل الآخر القابع في داخل الإنسان الذي نختلئ إليه في ساعات بؤسنا لنحاوره في همومنا وآلامنا ، هو المستقبل الذي يبتعد بأحلامنا إلى يوتيبيا الحب والسعادة ، غير أنه بدا في بعض المواقف سلبياً ؛ لأنه لا يجد لمشاكلنا حلاً سوى أنه يسمع لنا .

لقد مثل "الكروان" المحور الذي دارت حوله فكرة الرواية الأم ، فضلاً عن الفكرة المساوقة لها التي فعلت بوجوده . عالمان متقابلان متساوقان مختلفان تماماً : عالم الخير الذي مثلته الأنوثة البريئة ، وعالم الشر الذي مثلته الرجولة ، عالم الخطيئة الأدمية الأولى ، الرجل آدم والمرأة حواء .

الرواية تحكي قصة عائلة قروية تتألف من أم وبنين قتل أبوهما في حادثة مخلة بالشرف ، الأمر الذي أدى بخاليهما إلى طردهما وأمهما من القرية ، فشاعت الأقدار أن يذهبن إلى المدينة ليعملن في البيوت خادمت ، فحصل أن اعتدى أحد أسياد البيوت على " هنادي " البنت الكبرى فذهبت ضحية الاعتداء ، أما أختها الصغرى " آمنة " فقد شاعت الأقدار أن تزوج سيدها وتتعلم اللغة الفرنسية وتتقف بثقافة واسعة^{٢٣} .

تبدأ الرواية بمزاوجة رائعة بين السبب الذي أودى بحياة " هنادي " ، وبين النعيم الذي وصلت إليه آمنة . فلولا الموت لما استمرت الحياة ، والنتيجة إن الحياة بهذا الصراع تدوم بصرف النظر عن أسباب الأول ومقومات الثاني . ثم يسكن الكروان في نفس " آمنة " لينطلق السرد على لسانها وهي مترفة تعيش حياة النعيم على خلفية البؤس الذي عاشته هذه العائلة الأنثوية .

في هذه الرواية (يقدم طه حسين رسالة اجتماعية ، وهي ذات شقين ، الأول : يتمثل في التفسير من جرائم القتل التي كانت ترتكب باسم صيانة العرض . والشق الثاني : يتمثل في الدعوة إلى تمجيد عاطفة الحب وتوضيح أثرها البناء في إزالة المشاعر الخسيسة في النفس البشرية ، كالحقد والرغبة في الانتقام . الشق الأول نابع من صميم المجتمع المصري . والثاني يمثل عقدة باريسية صرفة)^{٢٤} . وقد دلت أماكن وقوع الأحداث ، والتباين بينها ، وأبطال الرواية وميزاتها على هذا التمايز الذي بدت فيه القوى المسيرة للشخصيات قوى اجتماعية ، فليس القدر ولا الطبيعة ولا الحادثة العرضية هي التي أدت بحياة "هنادي" ، إنما العرف الناتج من طبيعة المجتمع الريفي . وقد ترك الروائي المجال مفتوحاً للقارئ لتلمس الأسباب التي خلقت هذين المجتمعين ، فليس من شأنه أن يكون مؤرخاً ليعرض الأسباب التي خلقت عالمي الريف والمدينة ، إنما هي سنة المجتمعات التي من الطبيعي أن تكون بهذا التمايز الطبقي.

(وفق طه حسين في تصوير بعض المواقف تصويراً يكشف عن قدرة كبيرة على الاستنباط النافذ للنفس البشرية ، ولقد تسلسلت أحداث روايته في أكثر من الأجيال تسلسلاً منطقياً ، ولكننا نشهد أن كثيراً من مواقف الرواية لم يكن طبيعياً ولا مقنعاً ، ومن بينها ذلك الموقف الذي عابه كثير من النقاد وهو طرد الأخ لأخته وابنتيها من القرية ؛ لأن صهره ارتكب جريمة خلقية راح ضحيتها ، ووجودهن في القرية من شأنه أن يذكر بهذه الجريمة ، وبالسبب المخجل للأخ . ولو اكتفى بالفقر سبباً

لنزوحها من القرية كانت أكثر إقناعاً . كان أولى بالخال شديد الحساسية أن يأنف من هروبها وعملها في البيوت خادمة ، الأمر الذي أدى إلى مقتل الأخت لجريمة لم يكن لها يد فيها سوى الجوع والهروب الذي كان سبباً فيه . الشق الثاني من الرواية حاول أم يقرب فيه بين المجتمع المصري بان زوج " أمنة" من الذي كانت تخدم عنده بعد أن تعلمت اللغة الفرنسية وصارت قارئة نهمة للكتب العربية والفرنسية^{٢٥} . ويبدو أن الدكتور حمدي السكوتي في نقده هذا يعتمد الواقعية الفنية للرواية التي (تستطيع الكشف عن العوامل الفاعلة في واقع اجتماعي معين التي تدرك أن الموقف الواقعي المتوازن هو الموقف الذي تقوم فيه علاقة جدلية ومستمرة بين الواقع وبين البشر الذين يعيشون فيه)^{٢٦} . إن السبب الذي تبناه الدكتور حمدي السكوتي في الاعتراض على طرد الخال لأخته ، وعده سبباً غير مقنع ليس من شأنه أن يقلل من طواعية السرد ، أو عدم القناعة به ، فربما كان هذا الخال أنموذجاً سيئاً للرجل الريفي الذي لا يملك من أخلاق القرية سوى الذود عن نفسه بطرد أخته ، فلا يمكن إذن أن نتبنى حالة حاصلة في بيئة معينة ونعمم عليها الحكم النقدي .

أن رواية طه حسين علاج فني للواقع الاجتماعي المصري بطريقة رومانسية حاملة ، تستند إلى الواقع في استلهاام الحدث أو الموضوع لكنها لا تعالجه معالجة النظرية الاجتماعية ، فقد كان طه حسين يشير بأداته الفنية إلى تحديد الأسباب ويتلمس النتائج غير فاضٍ على الوعي الاجتماعي نظرية التصحيح القسري ، إنما هي دعوى للإصلاح الاجتماعي التي لا يمكن أن تحول مجتمع بين ليلة وضحاها إلى مجتمع خالٍ من الفقر والجوع والجهل ، بل يحاول أن يحدث فرقاً مستعيناً بأهم أداة ناجعة في الحقبة التي عاشها حسين هي أداة اللغة . لذلك فقد عالج آفة مستشرية في المجتمع العربي آفة اضطهاد المرأة قبل أن تكون جريمة قتل بسبب غسل العار ، آفة قتل النوازع الإنسانية في ضمير ووجدان النساء العربيات اللاتي خرجن مع الرجال من حضيض الاضطهاد الكوني المتمثل بالاستعمار والتبعية ، فما كان من الرجل إلا أن يمد بوعيه الجمعي إلى ماضيه الجاهلي متجاوزاً كل الحقبة النيرة التي حاولت أن تغيّر من قناعاته ، ليستعين بقناعة اضطهاد النساء بحجج كثيرة ، أولها ما عالجه رواية طه حسين.

ثانياً : الازدواجية الثقافية " الحب الضائع " .

هي الرواية الثانية التي تحكي واقع المجتمع المصري بطريقة تبدو مختلفة تماماً ، إذ أنها لا تحاكي ذلك الواقع صراحة ، فالرواية تحكي قصة فتاة باريسية تدعى " لين " تعاني من آثار الحرب هي وعائلتها التي فقدت شقيقين ، لكنها تزوجت وأنجبت غلاماً . ولها صديقة تدعى " لورنس " كانت قد قامت بينها وبين زوج " لين " علاقة حب جاهدت " لورنس " على التملص منها ، وبعد أن اكتشفت

" لين " هذه العلاقة بعثت برسالة إلى صديقتها تعلمها بمعرفتها بتلك العلاقة ، فحصل أن انتحرت كلتاهما^{٢٧}.

تدور أحداث الرواية حول مشاعر الأنوثة وهواجس الشباب ، وقضايا الحب والزواج وما يترتب على هذه المشاعر من آثار سلبية تتمثل بالخيانة الزوجية . أبطال الرواية من النساء ، وهذا ملمح في غاية الأهمية ، إذ أن أغلب أبطال روايات طه حسين من النساء ، يعرض من خلالهن ضعف الجانب الإنساني ، وتمكين سلطة الرجولة في مجتمع أبعد ما يكون عن ذلك ، لكنه يغازل مجتمعه المصرية بطريقة ذكية جداً . وقد عرض من خلال أحداث هذه الرواية لصورة من صور الثقافة الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية، إذ أنتجت مجتمعاً محطماً متأثراً بفلسفة " ديكارت " يحاول أن يتجاوز محنته بالمستقبل الآتي . واللافت للنظر إن طه حسين نزع في هذه الرواية منزع روايته " دعاء الكروان " ، إذ جعل لهذه المرأة الشابة سميراً تناديه في أوقات محنتها ، وتبث إليه ما يعتمر في وجدانها مما تعانيه من الحياة والمجتمع الذي تحيا فيه ، وتجعله أميناً على تلك الأسرار التي تودعها فيه، فكان هذا السمير دفتر الذكريات التي طالما آبت إليه عندما يشد عليها السأم والخوف والحزن . والناظر في أحداث الرواية يجدها بسيطة غير مركبة ، وشخصها قليلون جداً ، تدور في زمان ومكان معينين . وما يلفت الانتباه في هذه الرواية حديث " لين " مع دفتر ذكرياتها التي اعتادت أن تودع فيه أسرارها من دون أن تصرح بها إلى الناس .

ويبدو من خلال حياة " لين " الشابة الحاملة أنها تعيش غربة نفسية حادة ، فهي لا تتفاعل مع المجتمع ، ولا تجد نفسها منصهرة فيه ، إنما هي تتأى بنفسها ولا تتادم سوى دفتر ذكرياتها . وهذه الرواية تعكس صورة عن الحياة الباريسية ، غير أن الكاتب لم يستطع التخلص من آثار النزوع الشرقية العربية ، أو ربما تعمد ذلك ، فقد لجأ إلى عرف الزواج يعالجه بطريقة شرقية لم يعتدها المجتمع الغربي، فيجعله يتم وفق رغبات الأهل والعائلة ، وليس عن قناعة وحرية من تلك الفتاة الشابة الناضجة ، غير أن الكاتب استدرك ، وجعل من هذا الزواج حباً كان قد قام بين " لين " وزوجها ما جعلها تضحى لأجله . والملاحظة التي يمكن أن تجعل الكاتب يسقط من ثقافته العربية على توصيف المرأة العربية والنظر إليها بوصفها حالة من الطهر والعفة والإخلاص ونكران الذات ، ما وصف به الكاتب الشابة "لورنس" عندما شعرت برغبة الحب تجاه زوج "لين" فقررت الابتعاد عنها إلى غاية مجهولة كي تبتعد بمشاعرها ، ولا تؤذي لصديقتها مشاعر في زوجها . وما يمكن استخلاصه أيضاً والذي يظهر كأنه سمة عربية خالصة بالرغم من أن أجواء الرواية باريسية ، هو إن "لورنس" ظلت على ذمة زوجها المتوفى في الحرب لأمد بعيد ولم ترغب بالزواج بأحد غيره وفاءً له ، وما كان من

شأن الابتعاد عن صديقتها إلا إيفاءً لزوجها الراحل ، حتى انتحرت عندما عرفت "لين " بميلها نحو زوجها . وتبدو هذه المنعطفات السردية في حياة هاتين المرأتين من ميزات المرأة العربية فلا يمكن بحال أن تبقى امرأة شابة جميلة المنظر على ذمة زوج مات في الحرب إلى أمد بعيد في بيئة تجد متعت الصداقات المتعاقبة حرية شخصية .

عاش طه حسين في مقتبل حياته إلى الحقبة الشباب في مجتمع قروي تسود فيه العادات والتقاليد التي قال عنها حسين في أكثر من مناسبة بأنها تقاليد بالية . بقيت تلك التقاليد راسخة في مخيلته يحاول أن يغير فيها ؛ لأنه أدرك أن الناس يعيشون يومهم ولا يهتمون إلا بما يقوم أودهم من الطعام والشراب . وكان يجد صعوبة بالغة في تغيير نمط تفكيرهم ، وإذا كان الرجال يستطيعون أن يجدوا في العمل متنفساً لحياتهم الوئيدة ، فإن النساء المصريات خاصة والعربيات بعامة يجاهدن في بيوتهن من دون أن يعين أن أعمارهن تذهب سدى حتى يكون حلمهن بالأتي من الرجال لينقذها من وهاد الجور ، لكن حلمها ينتكس عندما تذهب إلى سجن آخر تكون محدداته أعظم من بيت الأهل . وبالرغم من هذا الحلم اليتيم بالنسبة لهن لكن بعضهن يرفضن الزواج ، ويفضلن حياة العنوسة على الزواج . وهنا تنتشأ قضية الكاتب في مناقشة عرف الزواج القسري . وتنتشأ معها قضية الخيانة الزوجية التي يراها المجتمع العربي منقصة للنساء مفخرة للرجال ، وحسين يناقش هذا الازدواج الأخلاقي بصراحة تامة .

كانت البيئة الباريسية صدمة حضارية لطفه حسين ، فمن واقع المشايخ والأعراف البالية إلى الانفتاح الفكري والعاطفي ، فما كان من حسين إلا أن يجري مقارنة ومقارنة "حالمة " بين بيئتين وعالمين مختلفين في المزاج والتركيب والوعي . وهو إذ يعالج الصراع في البيئة الغربية يحاول أن يمد جسوراً من التصحيح الواعي إلى بيئته العربية ، مستأنساً بعالم النساء الباريسيات ومقارناً بين عالم النساء الغربي وعالم النساء العربي الذي يبرز تحت وطأت الأعراف الرجولية البالية ، فكان طه حسين ناقداً لتلك الأعراف غير أنه من جهة أخرى أشاد بالوفاء للمرأة وحرصها على صيانة عاطفة الحب الخالدة .

ثالثاً: القمع الاجتماعي والسياسي " أحلام شهرزاد " .

لا يكفي طه حسين بنقل الواقع المصري إلى الرواية من خلال واقع عصره ، بل ألحت عليه روحه الأدبية أن يغوص في التراث الشعبي الغرائبي ليعثه من جديد في رؤية فنية رمزية يمرر من خلالها الفكرة التي يريد إيصالها .

تقوم الرواية على جدلية الحب والمعرفة التي تثير في الإنسان الرغبة في الحياة ، وتمده بمقومات السلطة المطلقة ، سلطة البطل الفرد الذي يرى نفسه مركز العالم الذي يستقطب الأشياء كلها^{٢٨}. وجمال الرواية يكمن في بعث التراث الأسطوري برؤية روائية عصرية ، فألف ليلة وليلة تمثل ملكاً للشعب ؛ لأنها تعبر عن مشاعره وأفكاره وهواجسه لكونها ملك الجماعة ، فهي تعبر عن نفسية المجتمع وطبقاته المسحوقة ، وهذا ما يجعلها تتصف بالواقعية^{٢٩}. غير أنها ليست الواقعية العيانية، إنما واقعية شعور الوعي الجمعي للمجتمع . من هنا كان الروائي موفقاً أيما توفيق لأنه زواج بين شعور الشعب ووعيه ورغبته الجمعية بالتححرر من خلال التراث الشعبي ممثلاً بألف ليلة وليلة ، وبين سلطة الحكام الدكتاتورية المقيتة ممثلة بسلطة الملك ورغباته النفعية النزقة . لذلك كان الحب والتعلق بالمرأة والرغبة في معرفة ما تعرفه من أشياء سبباً في بقائها حية لتكشف عن مشاعر الإنسان عندما تنهياً له أسباب السلطة.

ابتعدت رواية شهرزاد (عن الواقع المألوف لأنها رؤى مثولوجية ، وكان رباط الأحداث فيها منوطاً بشخصية البطل أكثر من أي شيء آخر)^{٣٠}. وهذا الرأي ينطلق صاحبه من أن الفعل البشري ينبع من إرادة فرد متفوق بطل يتحكم في بقية أفراد القطيع البشري مخضعاً إياهم لإرادته العبقريّة ، ومتحكماً فيهم بقواه الأسطورية^{٣١}. وبطلا الرواية الملك شهريار وزوجته الملكة شهرزاد (لكنه أي الروائي غير المجال الزمني فجعله يمتد ما بين الليلة التاسعة بعد الألف ، على حين إن شهرزاد في ألف ليلة وليلة كانت تحكي قصصها لشهريار وهي ساهرة متيقظة ، فإنها في هذه المرة تحكي وهي نائمة)^{٣٢}. وقد رصد المؤلف من خلال هذه الرؤيا الحلمية نوازع الملوك وتملكهم رقاب العباد . (غير أن قصص شهرزاد قد بدلت من حال الملك المتعطش إلى الدماء ، وفتحت أمامه عوالم راقية صافية ، لم يقترب من عتباتها من قبل ، وعلمته أن يعيش بحسه وقلبه وضميره معاً ، بعد أن كان يعيش بحواسه وغرائزه وهواه ، فقربت بينه وبين الحقائق العليا التي تطمح إليها نفس الإنسان)^{٣٣}.

كان حديث الحرب بين فاتنة بنت طهماز من ملوك الجن ، وخاطبها فرصة للمؤلف لكي يعبر عن رأيه في الحرب التي يعلنها الملوك إرضاءً لنزواتهم الخاصة^{٣٤}. ويقول الدكتور شفيع السيد : إن رواية أحلام شهرزاد طرح للديمقراطية عن طريق حديث شهرزاد من أن فاتنة تأذنت في شعبها وفي الشعوب الأخرى المجاورة لها بأن أمور الأمم إليها تشرك فيها من الملوك والرؤساء من تشاء وكيف تشاء^{٣٥}. حتى إن كان الرأي الذي ذهب إليه الدكتور شفيع السيد حقيقياً ، فإنه يبدو بعيداً عن أحلام الروائي ؛ لأنه افترض كل شيء على وفق الرؤيا الحلمية . ومن المعروف أن الرؤيا الحلمية رؤيا فنتازية ، لكنها تبقى في مخيلة الروائي مشروعة حتى وإن لم تتحقق.

رابعاً: المرأة العربية وحلم الخلاص " شجرة البؤس ":

الرواية عبارة عن سرد لمجموعة أحداث تعرض لتطورات أكثر من جيل في أسرة واحدة الأمر الذي (جعل نجيب محفوظ يعترف بأنه تأثر باتجاهات لا بأسلوب عرضها في ثلاثيته المشهورة)^{٣٦}. فهي تحكي عن مجموعة عوائل تربطهم روابط الرحم والصدقة والجيرة ، وتمتد أحداثها عبر زمن طويل ، محور هذه الرواية امرأة أسمها " جنانار " وهي كما يصفها المؤلف قبيحة المنظر ، غير أنها خدومة ومتفانية فتدور أحداث الرواية حول إحساسها والحياة تتقدم بها فيما ترى أقرانها من النساء ، لا سيما أختها قد تزوجت وذهبت إلى بيت زوجها . وتتحدث الرواية أيضاً عن نظرة المجتمع الشرقي العربي إلى أنموذج هذه المرأة ، وكيف تؤل بها الأحداث إلى الموت في حجرها بعد أن بلغت من العمر مبلغاً كبيراً.

العيب في هذه الرواية كما يبينه الدكتور حمدي السكوتي (هو التناول الموجز والسريع الذي لا يتناسب مع رؤية الأجيال . فمن أبرز الأمور التي يلاحظ القارئ عدم التناسب بين تطور الشخصيات من جهة ، والزمن الطويل الذي تغطيه الرواية من جهة أخرى . وثمة شخصية مهمة في الرواية تقدم وكأن المؤلف كان قد نسيها ثم يذكرها ، ويبدو أن أساس الخلل في الرواية إنها مجرد سيرة ذاتية لطف حسين وعائلته تكفي بنقل الواقع فعلاً . من هنا فإن رواية شجرة البؤس مثلها في ذلك مثل الأيام تعد مصدراً من مصادر المعلومات للمؤرخ الاجتماعي)^{٣٧}. ويبدو أن مأخذ السكوتي متجاوزة جيله النقدي . نعم أصبحت الرواية الحديثة بما توفر لها من أشكال درامية معقدة تمد في زمن السرد وتفصل فيه حتى أصبحت الرواية ربما تقام على حدث واحد لا يتعدى ليلة أو ساعة من نهار. غير أن حسين لم يكن قد بلغ الانفتاح الفكري الروائي في حقبته إلى هذه الدرجة من السرد حتى ينتج لنا عملاً روائياً بالصورة التي نقرأ فيها السرد الروائي المعاصر . من جهة ثانية فإن حسين كان غالباً ما يقطع السرد لا بوصفه روائياً علمياً ، بل بوصفه كاتباً ناقداً للمجتمع يكتب مقالاً في وضع المنهجيات التي آمن بها هو كي يعممها على المجتمع المصري ، وكأنه مصلح اجتماعي الغرض من روايته تبصير المجتمع بما يجب أن يكون عليه . لذلك فإن حسين كان همه عظة القارئ لينبئه إلى غرابة الأحداث التي يقدمها له ، أو ليقدم له شخصية فاته أن يعرف بها^{٣٨}.

من المعلوم أننا في السرد الروائي لا نطلب من القاص أن يقدم لنا العالم مثلما نطمح أو نراه في صورته الحقيقية العيانية ، إنما يكفي القاص أن يجعلنا نتأثر بالأحداث ونتفاعل معها بصرف النظر عن ماهية التأثير سلباً كان أم إيجاباً . ومهما قيل عن رواية شجرة البؤس من نقد إلا أنها تحتفظ بمقدرة نافذة في التأثير بالقارئ من خلال سيرة حياة " جنانار " فما تعانیه هذه الابنة في صغرها وشبابها

وكهولتها هي نوازع الأنوثة التي تطمح بالزواج والعائلة والولد . وقد صور طه حسين هذه النوازع بدقة متناهية فيما لامس الجوانب التي تחדش الحياء ملامسة خفية بما عرف عنه من مقدرة في الكتابة الأدبية . ولو أنه جعل السرد يدور حول هذه الفتاة من دون تساوقه مع بقية الأجيال ، وحصر امتداد الزمن السردي بمعاناتها فقط ، لكانت هذه الرواية من الروايات الجميلة وربما الكبير كما فعل " مكسيم غوركي " في رواية الأم بوصفها تعبر عن مشاعر الأمومة الشرقية عموماً . ومع كل الأحداث المتشابكة انفردت هذه الفتاة بهذه الرؤية التي لا تعدم أم تكون أحلاماً ومشاعر فتاة شرقية عربية حاملة

مرة أخرى يتوقف طه حسين عند أنموذج المرأة العربية المصرية ليعالج لنا موضوعاً في غاية الدقة والحساسية ، هو موضوع العنوسة والآثار النفسية التي تترتب عليه ، لكن حسين في هذه الرواية لم يشر إلى سبب بعينه أدى ويؤدي إلى هذه الظاهرة ، فلم يذكر لنا مثلاً تأثير العائلة على النساء العربيات والوقوف في طريق زواجهن بحجج كثيرة . أو اعتراضات من قبيل زواج الأقرباء وفرض " ابن العم على بنت عمه " ، بل كان محور حديثه منصباً على المجتمع الذي لا يتذكر أن في هذا العالم نساء لهن مشاعر ورغبات يردن أن يشبعنها ، فلم يكن هم هذا المجتمع سوى النظر إلى النساء بوصفهن آلة للعمل في البيوت ، ومن غير اللائق أن تسمع رغبات النساء علناً ، عليهن أن يبقين وبقياً في البيوت حتى يحين نصيبهن من الزواج . ولنا أن نسجل لطفه حسين سبقاً أدبياً في هذا المجال فلم نقرأ مذاك أنموذجاً روائياً يتناول المرأة العربية في ظل ما يحيط بها من أعراف وتقاليد بالية ، أو ربما تؤولات دينية تسلبها حقها في الحياة ، لم نقرأ سرداً بهذه البساطة الموحية والمؤثر في مجتمع أحوج ما يكون لهذا السرد . نحتاج أن نقرأ نتاجاً روائياً حديثاً يتناول موضوع النساء العربيات برويا عصرية تؤثر بالقارئ العربي لتغيير ، أو لتحديث فرقاً في الأقل بتفكير المجتمع العربي ونظرتة للنساء .

خامساً: الصدمة الحضارية " أديب " .

صدرت رواية أديب عام ١٩٣٥ وقد سبقها إلى النشر رواية دعاء الكروان ، ورواية أديب تحكي سيرة أديب نزع من الريف المصري إلى القاهرة للدرس والعلم ، ثم شاءت الظروف أن يرحل إلى باريس في رحلة علمية ليتعرف على الحياة الأوربية عن قرب فينغمس في ملذاتها ، ويشيح بوجهه عن حياته السابقة التي كانت نفسه تنازعه بالعودة إليها . هذه الشخصية كما صورها حسين متوقدة الذكاء قبيحة المنظر . يعرفنا الروائي عليها من خلال علاقة هذه الشخصية ، أي شخصية أديب ، بزوجته " حميدة " التي ما كان ليرغب بتركها لولا شغفه بالسفر إلى باريس ، وكيف كانت الأيام الأولى صعبة عليه بعد فراقها؟ ثم ما أن أخذت الأيام بالتعاقب حتى تحول ذلك الاشتياق إلى عزوف

وانغماس في المذات الأوروبية ، والعلاقات السريعة المتوالية مع الفتيات الباريسيات كان آخرها مع " ألين " التي لم تكن علاقته بها عابرة سريعة ، لذلك فقد تأثر حين هجرته . وما بين الحياة التي يحيها والحياة السابقة ، وما بين إخفاقه في الدرس وظروف الحرب تصاب شخصية أديب بمرض يؤدي بها إلى الموت^{٣٩}.

الصفحات الأولى من الكتاب حديث عن الإبداع الأدبي ، ينتقل طه حسين في نهايته إلى الربط بين هذا الحديث ، وبين صاحبه الذي أضنته علة الأدب ، فكان لا يشعر بشيء سوى الأدب . فهو رجل ملك عليه الأدب عقله ووقته وتصرفاته ، يكتب الشعر والنثر لكنه يخاف النشر .

إن أبرز المآخذ على هذا العمل هو (قلة الشخصيات أو انعدامها بجانب شخصية البطل والراوي)^{٤٠}. والشخصيات الأخرى قليلة وأدوارها محدودة مثل " ألين " و " فرناند " ، كما أن أحداث الرواية قليلة بطيئة ؛ لأن الأسلوب يعاني من الاسترسال في السرد الإنشائي الذي جاء بلغة واحدة هي لغة المؤلف وطريقة تقريرية خاصة في الرسائل الطويلة . وإذا كان لا بد من قطع في هذا (فإن أديب غير مكتملة من حيث الجانب الفني للرواية ، وهي لا تخلو من بذورها حيث تقف حائرة بين السيرة والرواية)^{٤١}. وقد عدها غير واحد من النقاد في باب السيرة الذاتية أمثال الدكتور عبد المحسن طه بدر الذي قال عنها بأنها : (الجزء الثالث من الأيام)^{٤٢}. غير أن خالد الكركي يعدها في باب القصة لا السيرة موضحاً رأيه بالقول: (السيرة تحتاج إلى مذكرات وأدلة وتاريخ واضح ، وكونها أقرب إلى السيرة هو أن طه حسين يقدم ترجمة لحياة أديب من الأدباء بكل ما فيها من نجاح وفشل ، موضحاً ثقافته وفكره وشخصيته من دون أن يقدم هذه الحياة بتسلسل تاريخي بل ما قدمها في مشاهد ولوحات)^{٤٣}. والرواية تحكي عن شخصية حقيقية ، وترجمة لحياته وعلاقة هذه الشخصية بطه حسين ، كيف أثرت به وتأثر بها ؟ وهو في تصويره لمراحل رحلة هذه الشخصية في الحياة يعكس جزءاً من شخصيته وحياته التي عاشها وظروف السياسية التي يتعرض لها الأديب التي تؤدي به إلى التهميش وإقصائه من الحياة الأدبية والفكرية والسياسية . والرواية تقوم في أغلبها على الرسائل التي بعث بها أديب إلى طه حسين ، أو إلى زوجته حميدة الأمر الذي يجعلها تحتكم إلى الواقعية ، لا إلى الخيال الروائي . وقد صرح طه حسين بشخصية أديب وعرف به قبل وفاته بعامين ، بعد أن كان حريصاً على عدم ذكر اسمه . إنه " جلال شعيب " زميله في الجامعة الأهلية في فرنسا^{٤٤} . وكما عودنا طه حسين في جل رواياته يستخدم أسلوب الرجوع بالذاكرة ، وقد بدا هذا الأسلوب جلياً بخاصة في الحوار الطويل الذي كان يدور بينه وبين صاحبه ، ووصفه لقرية طه حسين ولبيت المأمور وغيرها.

إن أبرز ما في أديب أنها تمثل أثراً من الآثار العربية التي تدرس الصراع الذي يواجهه المثقف العربي عندما يرحل إلى حضارة جديدة . فبطل الرواية أديب وجد نفسه ينتقل من ريف مصر إلى باريس ، ومن حميدة إلى فرناند وألين ، ومن الأزهر إلى السربون ، وهذا يوضح نظرة المثقف العربي إلى الحضارة الغربية . وقد استطاع الكاتب أن يبيث من خلال شخصية أديب بعض ما كان يعتلج في فكره من ثورة على السلطة القائمة ، ويبرز دور المثقف المصري في الحياة السياسية الفاعلة . وهذا ليس بجديد على طه حسين الذي تعود أن يكتب ليجني ثمار كتاباته في عقول المتعلمين ، فهو كما ورد ذكره لم يرد في كتاباته الروائية وجه الشهرة ، إنما كان هدفه أن يعلم هذا الجيل أهداف المعرفة سواء كان عن طريق الدرس الأكاديمي أم عن طريق الفن الروائي .

إن القارئ للرواية تسلبه الأحداث حقيقة ما يعنيه الكاتب فطه حسين عاد ليجعل المرأة محور الحدث الدرامي وإن لم يكن الحديث عنها مباشرة ، فهي لم تكن شخصية الحدث المحورية أو الرئيسة ، بل كانت ظلاً همشها حسين ليعطي للقارئ فرصة معرفة الإيثار الذي تحمله المرأة العربية لعقد الزواج المقدس ، ويضع حسين اللوم على الرجل الذي طالما حنث بعهده ودنس رباط الزواج هذا . فلم يكن ذنب حميدة أنها تزوجت بأديب ، ولم يكن ذنبها أيضاً إنه كان مثقفاً ورحل عنها إلى باريس ، فشتان ما بين حميدة وغيرها ، وبين مصر وباريس ، لكن الحقيقة هي أن عالم النساء العربيات عالم خيالي غرائبي بامتياز ، فهن الباقيات عندما تدور دراما الحرب ، وهن السيدات عندما يتعلق الأمر بالإيثار وحماية العرض ، وهن البائسات اللاتي وضعهن العرف في قمة البؤس الإنساني . إن حسين يتعرض لصورة من أروع الصور المأساوية " إن صح القول " يتعرض للمرأة العربية البسيطة التي تقترن بزوجها المثقف ، وكيف تعود للمعاناة مرة أخرى ، والكاتب يبين من خلال هذا إن المرأة مهما حصلت على امتياز من نوع ما فهي تبقى مضطهدة في عرف الرجولة العربية.

الخاتمة

إن مجمل الآراء النقدية التي قيلت عن طه حسين بوصفه روائياً لم تجعله في طليعة كتاب الرواية المصرية ، أمثال نجيب محفوظ مثلاً . ولم تكن له يد السبق في إرساء هذا الفن العالمي ، بل لم يكن له السبق في كتابة رواية تعد البداية الحقيقية لنشأة الرواية المصرية كما هو عند توفيق الحكيم في روايته " زينب " . لكنه من جانب آخر يعد من الجيل الذي ساهم مساهمة فاعلة في نشأة الرواية المصرية بما كتبه من روايات، حتى إنه فتح المجال واسعاً أمام غيره من الروائيين المصريين الذين ذاعت شهرتهم . فقد حاكى الروائيون أعمال طه حسين كما فعل نجيب محفوظ في ثلاثيته التي قال إن فكرتها مستقاة من رواية شجرة البؤس .

إن طه حسين لم يتخذ صناعة الرواية مجالاً لفنه ، أو حرفة تكون الأساس فيما كتب ، إنما كانت الرواية بالنسبة له درساً بالقيم والأخلاق الاجتماعية التي حاول أن يبثها من خلال ما يكتب من روايات . لذلك كانت رواياته كلها تحاكي الجانب الأخلاقي الوجداني من الحياة اليومية التي يعيشها المجتمع العربي بعامة ، والمجتمع المصري بخاصة .

إن ما يميز روايات طه حسين هو اتخاذها من النساء أبطالاً يدرن الحدث الدرامي بما يعتمر في نفوسهن من هواجس وقلق وأحلام وآلام وأمنيات ورغبات ، الأمر الذي جعل أعماله الروائية ثورة على الواقع العربي الذي غيب دور المرأة بحجة الدين تارة ، والعرف الاجتماعي أخرى . فقد كانت المرأة في رواياته أسيرة لرغبات المجتمع ونوازعه وعرفه ، فكان دورها مغيباً في مقابل دور الرجل ، ولم يضع الروائي حلاً لهذا الشعور القاسي من قبل المجتمع ، غير أنه دافع عنها بأن برز دورها الأمومي ، ودورها في إنماء الحياة وخصبها بوصفها الزوجة ، ودورها في إضفاء جانب الروعة والأمل في الحياة بوصفها الحبيبة ، وحارب كل مظاهر الحط من أنوثتها بأن أظهر جانب الخيانة الزوجية مقترناً بالرجال ، وبرز جانب الإهمال الذي تلاقيه عندما تمتلك مقومات الجمال التي تجعلها زوجة محببة ، وحارب العرف الذي يقضي بسرقة حياتها عندما ترتكب جريمة الاغتصاب بحقها ، فيما لا يجرم الرجل ولا يساءل عن جرمه الذي ارتكب . هذه الأمور وغيرها كانت تدور في مجال الأخلاق الاجتماعية ، كانت المرأة سيدة الحدث بامتياز . لذلك يمكن القول إن روايات طه حسين درساً في التوعية الاجتماعية وإصلاح المجتمع.

فهرست المصادر

١. اتجاهات الرواية المصرية، د. شفيق السيد ، دار المعرفة ، مصر، ١٩٧٨.
٢. أحلام شهرزاد ، طه حسين ، ط١، طبعة خاصة عن مجلة الاتحاد عن الطبعة الأولى ، ١٩٤٣.
٣. أديب ، طه حسين ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣.
٤. إشكالية الرواية الحديثة ، مجموعة مقالات ، تحرير واختيار ، وليام فان أوكونور ، ترجمة ، نجيب المانع ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠.
٥. أعلام الأدب المعاصر في مصر طه حسين ، د. حمدي السكوتي ، د. مارسدن جونز ، الجامعة الأمريكية.
٦. الأدب القصصي والمسرحي في مصر ، أحمد هيكل ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨.
٧. التراث الشعبي في الشعر العراقي الحديث ، قيس كاظم الجنابي ، الموسوعة الصغيرة ، ٤٥٢، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٠.
٨. الحب الضائع ، طه حسين ، ط١٥، دار المعارف ، القاهرة .
٩. الذاكرة القومية في الرواية العربية من زمن النهضة إلى زمن السقوط ، د. فيصل دراج ، ط١، بيروت ، ٢٠٠٨.
١٠. الرؤية والأداة ، نجيب محفوظ ، د. عبد المحسن طه بدر ، ط٣، دار المعرفة ، القاهرة .

- ١١- الرواية الحديثة الانكليزية والفرنسية ، بول وست ، ترجمة ، عبد الواحد محمد ، ط٣، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨١.
- ١٢- الرواية العربية بين التراث والمعاصرة ، سعيد يقطين ، علامات في النقد ، المجلد الخامس عشر ، الجزء السابع والخمسون .
- ١٣- الرواية بين النظرية والتطبيق ، راکز أحمد ، ط١، سورية ، ١٩٩٥.
- ١٤- الرواية وصناعة الرواية ، أورد بلشن، ترجمة ، سامي محمد ، الموسوعة الصغيرة ، ٩٩، دار الحرية ، بغداد ، ١٩٨١.
- ١٥- العقاد عملاق الأدب والفكر والفن ، جمال الدين الألوسي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، ١٩٨٧.
- ١٦- المرايا المتجاوزة ، دراسة في نقد طه حسين ، جابر عصفور ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٠.
- ١٧- تجاربي في الأدب والنقد ، شكري محمد عياد ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧.
- ١٨- تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ، (١٨٧٠ - ١٩٣٨)، عبد المحسن طه بدر، ط٢، دار المعارف ، مصر.
١٩. خصام ونقد ، طه حسين ، ط٨، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨.
- ٢٠- دعاء الكروان ، طه حسين ، ط١٧ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٣٤.
- ٢١- شجرة البؤس ، طه حسين ، ط٩ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٥.
- ٢٢- صناعة الرواية ، بيرس لوبوك ، ترجمة ، عبد الستار جواد ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨١ .
- ٢٣- طه حسين روائياً ، د. خالد الكركي ، ط١، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٢.
- ٢٤- فن الرواية ، كولن ولسن ، ترجمة ، محمد درويش ، دار المأمون ، بغداد، ١٩٨٦.
- ٢٥- فن الرواية العربية ، فؤاد درارة ، دار الكتاب العربي ، القاهرة .
- ٢٦- من أدبنا المعاصر ، طه حسين ، ط١، القاهرة ، ١٩٥٨.

الهوامش

- ١ - الرواية بين النظرية والتطبيق : ٢٧.
- ٢ - ينظر ، الرواية العربية من التراث إلى المعاصرة : ١١١.
- ٣ - ينظر تطور الرواية العربية الحديثة في مصر : التقسيم ممتد على شكل فصول في الكتاب .
- ٤ - ينظر ، الرواية بين التنظير والتطبيق : ٢٥.
- ٥ - ينظر ، اتجاهات الرواية المصرية : ٩٩ - ١٠٠ .
- ٦ - ينظر ، تطور الرواية العربية في مصر : ٨٩ - ٩٣.
- ٧ - في الرواية العربية : ٥.
- ٨ - العقاد عملاق الأدب والفن : ٢٩٥.
- ٩ - ينظر ، الذاكرة القومية في الرواية العربية : ٦٢.
- ١٠ - ينظر اتجاهات الرواية المصرية : ٩٩.
- ١١ - تجاربي في الأدب والنقد : ٥٦.

- ١٢ – خصام ونقد : ١٢٩ .
- ١٣ – ينظر من أدبنا المعاصر : ٥ .
- ١٤ – أعلام الأدب المعاصر في مصر : ٥٠ .
- ١٥ – ينظر المصدر نفسه : ٥٠ .
- ١٦ – ينظر ، الرواية وصناعة كتابة الرواية : ١٤ .
- ١٧ – ينظر ن الرواية بين النظرية والتطبيق : ١١٥ .
- ١٨ – ينظر ، صناعة الرواية : ٢٨ .
- ١٩ – ينظر ، إشكالية الرواية الحديثة : ١٦ .
- ٢٠ – ينظر ، الرواية الحديثة الانكليزية والفرنسية : ٦٣ .
- ٢١ – فن الرواية : ٧٩ .
- ٢٢ – الذاكرة القومية في الرواية العربية : ١٥ .
- ٢٣ – ملخص رواية دعاء الكروان : الفصل الأول وما يليه .
- ٢٤ – أعلام الأدب المعاصر في مصر : ٤٣ .
- ٢٥ – أعلام الأدب المعاصر في مصر : ٤٤ .
- ٢٦ – الرؤية والأداة : ١٩٣ .
- ٢٧ – ملخص رواية الحب الضائع .
- ٢٨ – ملخص رواية أحلام شهر زاد .
- ٢٩ – ينظر التراث الشعبي في الشعر العراقي الحديث : ١٤ – ١٥ .
- ٣٠ – اتجاهات الرواية المصرية : ٥٤ .
- ٣١ – ينظر الرؤية والأداة : ١٩ .
- ٣٢ – اتجاهات الرواية المصرية : ٥٤ .
- ٣٣ – المرايا المتجاوزة : ٩٦ .
- ٣٤ – ينظر اتجاهات الرواية المصرية : ٥٦ .
- ٣٥ – ينظر المصدر نفسه : ٥٧ .
- ٣٦ – تطور الرواية العربية الحديثة في مصر : ٣٩٨ .
- ٣٧ – اتجاهات الرواية المصرية : ٥٠ .
- ٣٨ – ينظر ، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر : ١٦٤ .
- ٣٩ – ملخص رواية أديب .
- ٤٠ – الأدب القصصي والمسرحي في مصر : ١٣٩ .
- ٤١ طه حسين روائياً : ١١٢ .
- ٤٢ – تطور الرواية العربية الحديثة : ٣١٥ .

٤٣ – طه حسين روائياً: ٩٩.

٤٤ – ينظر أعلام الأدب المعاصر في مصر : ٤٢.

Conclusion

The overall consensus cash that is accepted about Taha Hussein as a novelist didn't make him in the forefront of the Egyptian book of the novel like Najeeb Mahfouz ,for example he didn't have the hands of a head start in establishing his procession of the world but he didn't have the head start in writing of the novel is the real beginning of the emergence of the Egyptian novel as it is when Tawfeeq Al Hakim in his novel Zainab . But by longer old generation contributed effectively in the Egyptian novel which he said that it is adopted from the tree of misery .

So Taha Hussein doesn't consider writing a novel for his art or as an art craft is the base lesson and social behaviors which he tries to broadcast through his writings novels. Therefore all his novels mimic the moral emotional sides of the daily life which the Arabic society generally lives it and especially the Egyptians .

What distinguished Taha Hussein novels is making the woman as a heroes including wearing concerns ,worry ,dreams ,wishes and desires .This matter made his novels a revolution in the Arabic reality that made the women absent under the cover of religion and customs on the other hand .the role of the woman in his novels as a prisoner of the desires of the society ,struggles and it's traditions .Her role is absent against the man's role .The novelist didn't put a solution for such hard feeling of the society .He defended her by showing her motherhood role and her role in the development oof life by her fertility as a wife and her role in adding hope and beauty in life as a beloved .He fought all the degrade aspects of femininity by showing the husband treason compared with men .He shows the neglected side which she faced when she has the beauty which made her a beloved wife .He fought traditions which requires stealing her life when a busing crime is committed with her whereas men don't criminalize .All these matters were spinning in the social moral side .The woman was the mistress of the event .As a result we can say that Taha Hussein 's novels as a lesson in social awareness and reform society.